المقدسيّون من رواد النهضة الفكريَّة والأدبيَّة يقودون فلسطين في القرن التاسع عشر
أحد عشر رائداً مقدسياً بين خمسين
«قراءة تحليليَّة لموسوعة الباحث جهاد أحمد صالح»

عزيز العصا

مقدمة

يعدّ القرن التَّاسع عشر الميلاديّ، وحتَّى الخمس الأول من القرن العشرين، مفصلاً مهمّاً في تاريخ الأمَّتين العربيَّة والإسلامية؛ لأنَّه جاء ختاماً لستَّة قرون متواصلة من نمط حكم عائليّ وراثيّ ساسَ الإمبراطوريَّة العثمانيَّة وقادها (1300م- 1924م)، قلَّما يشهد له التاريخ مثيلاً من حيث التَّتابع في استلام الحكم داخل نفس العائلة، والثَّبات في السّياسة العليا للدَّولة، أضف إلى ذلك أنَّها شهدت العديد من الحروب والأحداث الكبرى، كان آخرها الحرب العالميَّة العظمى الَّتي اندحرت فيها الإمبراطوريَّة العثمانيَّة بعد أن تجاوزت مساحتها، في أوج قوّتها، أربعة عشر مليون كيلو متر مربع.

أما على مستوى الوطن الفلسطينيّ، فقد شهد القرن الأخير (التاسع عشر) ظهور شريحة من المثقّفين، كانوا روّاد هذه الحقبة، وهم الأكثر تعرضاً للمتغيرات المفاجئة من قبل دولة ونظام حكم يترنحان تحت وطأة ضغط الأعداء الإستراتيجيين، الذين يتربَّصون بهم الدوائر، ويحضّرون أنفسهم لاقتسام كعكتها الَّتي أخذت تنضج شيئاً فشيئاً منذ أواخر القرن الثَّامن عشر. وهناك عوامل عجَّلت في حالة الانهيار، مثل: ضغط الفقر والفاقة

والحاجة، وإغراءات وتهديدات الاستعمار الغربيّ القادم إلى المنطقة بنيَّة استغلال موقعها الإستراتيجي، والسيطرة على ثرواتها، والعمل على تفتيتها؛ لضمان عدم إمكانيَّة إعادة التحامها.

اعتمد الباحث الفلسطيني «**جهاد أحمد صالح**»، في موسوعة أصدرها حول «**روّاد النهضة الفكريَّة والأدبيَّة وأعلامها في فلسطين**» عن دائرة الثقافة والإعلام في الشَّارقة بين عاميّ 2016م و2019م، أن النهضة انطلقت على يد مواليد عام 1829م؛ أي إن من كانوا أطفالاً تحت الحكم المصريِّ في عهد محمد علي باشا (1831م–1839م). وقد أنجز صالح منها ستة مجلّدات –حتى تاريخه– تضم مائة وأحد عشر رائداً في المجالات الفكريَّة والأدبيَّة المختلفة، توزعت على (4885) صفحة من القطع الكبير، وقد تم ترتيبهم حسب تاريخ الميلاد.

وقد قمتُ في هذه الدّراسة بتجزئة الموسوعة إلى جزءين رئيسيَّين، هما: مواليد القرن التاسع عشر بين العام خلال الفترة (1829– 1900)، والتي شملت (50) رائداً ورائدة[1]، توزعت سِيَرهم على (2122) صفحة؛ تشكل حوالى (43 %) من حجم الموسوعة الَّتي بين أيدينا، ممن واجهوا شظف العيش؛ من لحظة الولادة (في ظل الفقر والجوع وجهل المجتمع) حتى آخر العمر، حيث توزعوا بين من عاش وعايش انفراط عقد الإمبراطوريَّة العثمانيَّة الَّتي ولدوا في ظلالها، ومن انتقل من واقع الدولة العثمانيَّة البائس إلى واقع الاحتلال– الانتداب البريطاني ذي الطابع التَّجهيليّ والأكثر بؤساً وألماً. **كما يتبيَّن أن القدس هي المدينة الَّتي احتشد فيها أكبر عدد من هؤلاء الرُّواد؛ مولداً ونشأة وتعليماً، من هنا تضمن العنوان قيادة المقدسيين لرواد النهضة الفلسطينيين.**

بقراءة متمعّنة لِسِيَر ومسيرات خمسين رائداً ورائدة، الذين تمتد تواريخ ميلادهم على مدى سبعين عاماً (حتَّى عام 1900م)، وجدتني أمام قاعدة بيانات مهمَّة لمجموعة من المبدعين والعباقرة وروَّاد الفكر الحرّ والتَّحرّريّ، تكمن خلفهم مجموعة من الحقائق الَّتي لا بد من التوقف عندها بالقراءة والتحليل، وأدعو الباحثين، من مختلف التخصصات، إلى

(1) من بينهم ثمانيَّة روّاد من أصل لبناني، هم: المعلّم نخلة زريق، ونجيب نصَّار، والشيخ محي الدين الملّاح، وعبد الله مخلص، وأحمد حلمي عبد الباقي باشا، ووديع البستاني، وجورج أنطونيوس، وعجاج نويهض.

تسليط الضوء عليها؛ لما فيها من مخزون فكريّ ومعلوماتيّ، يشكّل إضاءات مهمة لمن يسعى إلى التخطيط لمستقبل يحقق للأمة نهضة وحضوراً بين أمم الأرض الَّتي ترى في علمائها ومفكّريها بيارق تشكّل للأمة هويتها الَّتي تميزها عن غيرها من الأمم. وقد توزّع رواد النهضة في القرن التاسع عشر على مدى (70) عاماً وفق السّمات الرَّئيسة المبينة في الملحق(1).

من مكنونات روَّاد النهضة

تم تصميم جدول خاص بهذه الموسوعة؛ من أجل إحصاء القضايا والتقاطعات والسمات والخصائص، الَّتي يتفق فيها الروَّاد ويختلفون، وذلك من خلال رصد تلك القضايا أثناء مطالعة سِيَر الروَّاد، كل على حدة، فظهرت البيانات والبيّنات التالية:

أولاً- ندرة المدارس العامة وأثر مدارس الإرساليَّات:

تبين من تواريخ ميلاد رواد النهضة أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر لم يوجد سوى اثنيْن من مواليد تلك الحقبة، وجدا الفرصة للتَّعلم والنبوغ، هما: يوسف ضياء الخالدي (1829– 1906) (تعلم الابتدائيَّة في مدرسة إنكليزيَّة ثم أكمل تعليمه في الأستانة)، وبعده بعشرين عاماً وُلِدَ يوسف النبهاني (1849– 1932) (قرأ القرآن على يد والده ثم أرسله إلى الأزهر لإكمال تعليمه). **وهكذا كان حال من تبعهما؛ فإما الأزهر أو الأستانة، أو الاكتفاء بمستوى الابتدائي أو الثانوي في أحسن تقدير.**

ويتبيَّن أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر حمل ملامح إحصائيَّة تلفت النظر، لعل أهمها أن هناك تقارباً مطّرداً في أعداد المواليد من الروَّاد، حيث إن الفترة (1950م– 1975م) منه يشهد على ميلاد (10) رواد، من المسلمين والمسيحيّين، من الذكور فقط، يشكل المسيحيون 60 % منهم. وبمرور الزمن تبدأ أعداد المواليد من الروَّاد –خاصة المسلمين– بالتزايد، فتشهد الفترة (1876م– 1900م) على مولد (38) رائداً ورائدةً، يشكل المسيحيون حوالى (32 %)؛ من بينهم مسيحيتان مقابل ولا مسلمة.

لا يمكن تفسير تلك الأعداد بمعزل عن واقع التعليم في تلك الحقبة، ولأن المجال لا يتسع هنا للخوض في هذا المجال بشيء من التفصيل، فإنّه يُكتفى بالإشارة إلى الحقائق التالية:

1) قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت معاهد التعليم من نوع «الكتاتيب»؛ لتعليم الدين والقرآن، وكان هناك بعض المدارس الخاصة بالكبار تعلّم العلوم الدينيَّة والشرعيَّة وما تحتاج إليه تلك العلوم من مواد أخرى، وكانت أغلبيَّة هذه المدارس، بنوعيها، ملحقة بالمساجد والجوامع العامة[1].

2) شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر إصلاحات على المستويات المختلفة، نال التعليم منها نصيباً وافراً. ففي العام (1847م) تعيّنت أول لجنة للمعارف لمراقبة المدارس في البلاد العثمانية، وفي عام (1848م) فُتحت في الأستانة دار المعلمين؛ لتدريس معلمين للمدارس الثانوية، وفي العام (1951م) تأسست جمعيَّة لنشر الكتب العلميّة.

3) كما تذكر النشرة الرّسميَّة لوزارة المعارف العثمانيَّة في السنة الدراسيَّة 1913/ 1914 –أي السنة الَّتي سبقت نشوب الحرب العالميَّة الأولى–، بخصوص ألويَة القدس ونابلس وعكّا، أن نحو (10 %) فقط من مجموع الأطفال الذين في سنّ التعليم الإلزامي هم على مقاعد الدّراسة.

4) من الجدير ذكره أن لغة التعليم في المدارس الرسميَّة –طلبتها من المسلمين– هي اللغة التركيّة، وكان التدريس باللغة العربيَّة في مدارس الطوائف غير المسلمة، ومختلف اللغات الأوروبيَّة في أكثر المدارس الأجنبية.

5) لتفسير ارتفاع نسب الروَّاد المسيحيين مقارنة مع وضعهم الديمغرافيّ، فإنه يمكننا إمعان النظر في الإحصائيَّة الَّتي تقول إنه عندما كان عدد الطلبة في أواخر القرن التاسع عشر (15773) طالباً وطالبةً، كان عدد الطلبة في المدارس الخاصة بالمسلمين (8705) طالباً وطالبةً.

أضف إلى ذلك أن يوسف ضياء الخالدي تعلّم في مدرسة إنكليزية، وعندما انتقل إلى الأستانة تمكن، وبمساعدة والي سوريا التركيّ، من إنشاء أول مدرسة رشيديَّة أنشأها

(1) ياغي، عبد الرحمن (2001). حياة الأدب الفلسطيني الحديث– من اول النهضة حتى النكبة. وزارة الثقافة الفلسطينية. الطبعة الثانية. ص: 30، 67–69.

الخالـدي نفسـه في القدس في العام 1867، فخاب ظنّه عندما تـم تعيين تركي مديراً لها[1]. وفي ذلك إمعانٌ، بل مبالغة، في تتريك الإدارة وحرمان العرب من إدارة أنفسهم بأنفسهم، إلى جانب تتريك التعليم وحرمانهم من التعلم بلغتهم الأم.

جميع الأرقام والنسـب أعلاه تؤكد على أن المجتمع العربي الفلسـطيني كان يتعرّض إلى عمليَّة تجهيـل واضحـة؛ من خلال عدم توفـير الفرص لجميع الأطفال للتعلُّـم. في حين أن المدارس التابعة للإرساليات التبشيريَّة كانت تأخذ مجدها في صياغة طلبتها بالشكل الَّذي يحقق أهدافها الإسـتراتيجيَّة الَّتـي وجـدت من أجلهـا، والمتمثّلة بالسـيطرة عـلى المنطقة وإعدادها لإنشـاء مشاريعهم الاستعمارية، الَّتي انتهت بإقامة الدَّولة العبريَّة كمشروع استعماري في المنطقة.

مـن جانـبٍ آخر، يلاحـظ أن المدارس الابتدائيَّـة كانت منتشرة في المـدن، ولم يكن للقرى سـوى فتات الكتاتيب –إن وجدت–. وبالنظر إلى الخريطة الديمغرافيَّة للمجتمع العربيّ، نستطيع تفسير انتشار الجهل والأميَّة والتخلف في هذا المجتمع، فكان (70 %) منه قرويون مزارعون، و(20 %) حضريون حرفيون، و(10 %) ذوات وأعيان وفقهاء وموظفون[2]. أي إن التعليـم يكـون قـد انحـصر، بالدرجة الأولى، في الــ(10 %) من المجتمـع العربيّ، الذين كانوا يحظون بعلاقة حسنة مع الدولة، وحُرم منه الـ(70 %) من هذا المجتمع.

ويمكـن إيجـاز وضـع التعليم في العهـد العثماني بأنـه، بالإضافة إلى سياسـة التتريك، كان المنهاج التعليمي ضعيفاً، وأساليب التدريس متدنية، وقد وصف أحد الأساتذة المعاصرين للأوضاع التربويَّة أيام العثمانيين أحوال التعليم بلاءات ثلاث[3]:

- لا عدّة مدرسيَّة تستحق الذكر.
- لا منزل يصلح للسكن.
- لا مدرس له من العلم أو التهذيب أدنى نصيب.

(1) صالـح، جهـاد أحمد (2016). موسـوعة رواد النهضـة الفكريَّة والأدبيَّة وأعلامها في فلسـطين. ج1 (1828–1880). الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام. ص: 38.

(2) ياغي (2001). ص: 55.

(3) الحوت، بيان (1991). فلسطين (القضية– الشعب– الحضارة): التاريخ السياسي من عهد الكنعانيين حتى القرن العشرين. دار الاستقلال للدراسات والنشر. بيروت، لبنان. ط1. ص: 418.

لتلك الأسباب وغيرها، نجد أن هؤلاء الروَّاد لم يحظوا على تلك المكانة -وحرمان نظرائهم من الفقراء والبائسين والقرويين- إلّا لأنَّهم تمكَّنوا من إكمال تعليمهم في الأزهر الشريف أو بيروت أو الأستانة، وقلّة منهم تعلّم في أوروبا وأميركا. أي إنَّه لم يكن هناك مؤسسات تعليميَّة في فلسطين تكافئ ما يتوفر في البلدان المذكورة.

ثانياً- نفي واعتقالات وأحكام بالإعدام:

إن المتابع لسيرة ومسيرة رواد النهضة قيد الدّراسة في هذه الموسوعة، يجد أن الكثير منهم تعرض للملاحقة والنفي، ومنهم من حُكِم عليه بالإعدام من قبل الحكومة العثمانيّة، على خلفيَّة مواقفهم من حالة الفساد في الحكم الَّتي انعكست على حياة الشعب، على مختلف الأصعدة. ومن الأسماء الَّتي تعرضت لتلك المعاناة: يوسف ضياء الخالدي، وروحي الخالدي، والشيخ سعيد الكرميّ، ونجيب نصّار، وعيسى العيسى، والشيخ سليمان التاجي الفاروقيّ، وبولس شحادة، وعادل زعيتر وعمر صالح البرغوثي وغيرهم.

ولعل أكثر الصور إيلاماً نجدها في حالة العالم والمجمعيّ المشهود له الشيخ سعيد الكرميّ، الَّذي حُكم عليه بالإعدام إلى جانب عدد من رفاق له بتهمة توزيع بيان يدعو إلى الانتفاضة على الترك، إلا أنه الوحيد الَّذي بقي على قيد الحياة؛ نظراً لتقدمه في السّن، فأبدل الإعدام بالسجن مدى الحياة، أمضى منه (31) شهراً في سجن القلعة بدمشق، فأطلق عليه لقب «رائد السجون في فلسطين»[1].

وكذلك بولس شحادة حكم عليه بالإعدام بسبب خطبة لكنه هرب إلى مصر[2]، وعادل زعيتر الَّذي تعيّن ضابطاً في الجيش العثماني في العام 1916، ولمّا تبين له ظلم الترك للعرب هرب وانضم إلى الملك فيصل؛ فحُكم عليه بالإعدام غيابياً عام 1917[3]. أضف إلى ذلك عمر صالح البرغوثي الَّذي اعتقله الأتراك لنشاطه السياسيّ، ثم نفوه إلى أنقرة، وعندما حاول الانضمام إلى الجيش البريطاني أسره الأتراك، فأفلتوه بحيلة منه، فحاول الانضمام

(1) صالح (2016). ج1. ص: 112.

(2) صالح (2016). ج2. ص: 169-170.

(3) صالح (2016). ج3. ص: 302.

إلى البريطانيين مرة أخرى فأصابه الأتراك في قدمه، وعندما شفي من إصاباته شارك في الثورة على الإنكليز، فتم نفيه إلى عكا[1].

كما تعرض خليل السكاكيني للاعتقال والمهانة، فكبّلوا يديه بوثاق شديد وساقوه حافي القدمين حاسر الرأس إلى أريحا، فالسلط فعمان حيث أودع سجنها، وبعد مسيرة أربعة أيام سيراً متواصلاً على قدميه أركبه الحرّاس القطار مكبّلاً بالحديد، فأودع السجن في دمشق[2].

ثالثاً- تسليط الضوء على الصهيونيَّة ومقاومة تمددها:

تبدأ مقاومة الصهيونيَّة وتعريَّة أهدافها الاستعماريَّة مبكّراً، منذ أواسط النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على يد يوسف ضياء الخالدي الَّذي كان من أوائل الذين تنبهوا إلى خطر الصهيونية، الَّذي واكبه وعايشه منذ بروزه كفكرة إلى أن أصبح مشروعاً قومياً يهودياً بعد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام 1897م[3]. وتبعه روحي الخالدي الَّذي أعدّ مخطوطة عن الصهيونية، فرغ منها في العام 1911م، تركت أثرها على عدد كبير من الأفراد الذين لعبوا فيما بعد أدواراً حساسة في الحركة الوطنيَّة الفلسطينيَّة في مواجهة الصهيونية[4].

في الحقبة نفسها، نجد أن نجيب نصّار (1865– 1948) يوظّف جريدته «الكرمل»، وفي كل عدد من أعدادها، للتنبيه من الخطر الصهيوني المحدق بالبلاد[5]، وكان يعرّف عن قوة يهود الدونمة في الآستانة، وتراخي البعض من كبار المسؤولين الأتراك إزاء قوة هؤلاء[6].

(1) صالح (2016). ج3. ص: 52.

(2) صالح (2016). ج1. ص: 487.

(3) صالح (2016). ج1. ص: 58.

(4) صالح (2016). ج1. ص: 247.

(5) صالح (2016). ج1. ص: 292.
حتى بدايَّة الحرب العالميَّة الأولى كان شعار نصار: لا تشتروا من اليهود شيئاً إلا الأرض، بيعوا اليهود كل شيء إلا الأرض (صالح (2016). الجزء الأول. ص: 316).

(6) صالح (2016). ج1. ص: 301.

كـما أن خليل السـكاكيني (1878– 1953) نبّـه من الخطر الصهيـوني في العام 1914، من خـلال مقال، جـاء فيه: وإذا كنت أكره الحركة الصهيونيّة، فـلا أكرهها إلا لأنها تحاول أن تبني وجودها واستقلالها على أنقاض غيرها، ولست أعجب إلا من الحكومة العثمانيَّة الَّتي تـرى ذلك ولا تتلافاه، ومن الحكومات الأوروبيَّة الَّتي تحاول أن تتخلص من اليهود على نفقة غيرها[1]. وأما عيسـى العيسـى الَّذي كان يُعتبر فرداً من «عصابة السكاكيني ليمتد»، فـإن جريدته «فلسـطين» هي أول صحيفـة رفعت صوتها في وجـه الصهيونيَّة قبل الحرب (الأولى) بأربعة أعوام[2].

لقـد كان للمقالات المنشـورة في صحيفة فلسـطين، والمترجمة عـن «البروغرام» الصهيوني السـياسيّ، الأثـر في تنامـي الوعي لدرجـة كبيرة ضد هـذا الخطر الداهم، وقـام عدد كبير من رجالات فلسـطين باللقاءات والنقاشـات لمواجهة هذا المشروع؛ فظهر حزب سياسي يهدف إلى القضاء على الصهيونية، باسم «الحزب الوطني العثماني»[3].

كان الشـيخ سـليمان التاجي الفاروقي، اكتشـف تواطؤ بعض أقطاب الدولة العثمانيَّة مع الحركة الصهيونيَّة وزعمائها، من مؤسّسي هذا الحزب، فتم نفيه إلى أقاصي الأناضول، وهو مـن كتب في العام 1911 مقالاً أشـار فيه إلى أن فلسـطين «تكاد تكـون قد وقعت في نطاق النفوذ الصهيوني بالفعل، وأن الصهيونيَّة في فلسطين تشكل حكومة داخل حكومة[4].

إن جـلّ من لاحقتهـم الدولة العثمانيَّـة واعتقلتهم وحكمـت عليهم بالإعـدام، وقاوموا الصهيونيَّة بشـدّة أيام الدولة العثمانيّة، استمرّوا في مقاومتهم للمستعمر البريطاني ومحاربة الحركة الصهيونية، إذ تيقّنوا من صواب رأيهم في محاربتها مبكّراً. ومن الجدير الإشارة إليه أن اثنين فقط من روّاد النهضة الخمسين توفيا قبل الاحتلال البريطانيّ، هما: يوسف ضياء الخالـدي وروحـي الخالدي. أمـا الآخرون فمنهم من تـوفي على حافة الحقبـة البريطانية،

(1) صالح (2016). ج1. ص: 497.
أبدى السـكاكيني تململه من جماعة الاتحاد والترقي الذين يسـهلون الهجرة اليهوديَّة إلى فلسـطين (صالح (2016). الجزء الأول. ص: 499).

(2) صالح (2016). ج1. ص: 537–554.

(3) صالح (2016). ج2. ص: 10.

(4) صالح (2016). ج2. ص: 9–11.

مثل: الشيخ علي الرياوي (1860– 1919) ونخلة زريق (1861– 1921). ونحو ثلثيهم شاهد النكبة في العام 1948م واكتوى بنيرانها، كان آخرهم مصطفى مراد الدباغ (1898– 1989م) رحمهم الله جميعاً.

رابعاً: نمو الشعور القومي: الأسباب والنتائج

بمتابعة أدبيّات روّاد النهضة، قيد الدّراسة، الذين ولدوا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذين يمتد أثرهم وتأثيرهم حتى ثمانينيات القرن العشرين، نجد أن النزعة القوميَّة لديهم لم تكن عدائيَّة ولا عدوانية، كما أنها لم تكن من قبل المسيحيين على خلفيَّة دينية؛ وإنما جاءت من منطلق التفات هؤلاء المفكّرين إلى أن لغتهم أصبحت في خطر حقيقيّ، في أجواء «التتريك» الَّذي حكم التعليم الرسمي العثمانيّ، الَّذي أهمل اللغة العربيَّة الَّتي لم تكن لغة تدريس للعرب، في حين مدارس الطوائف الخارجة عن سيطرة الدولة العثمانيَّة تحيي اللغة العربيَّة وتحافظ عليها!

فيما يأتي نماذج لبعض الروَّاد الذين سعوْا إلى استعادة الأمة العربيَّة حضورها ووجودها، ليس خضوعاً لشهوة الانقسام وتفتيت وإضعاف الدولة العثمانية، وإنما لِلفت نظر النظام إلى أن هناك أمّة لها تاريخها العريق وحضارتها ولغتها الَّتي يجب أن يتعلم بها أبناؤها:

أ) «نخلة زريق» وطلبته من حماة العربيّة:

نخلة زريق (1861– 1921) سوريّ الأصل، لبنانيّ المولد والنشأة والنبوغ والتعليم، جاء إلى القدس في العام 1889م، بطلبٍ من المبشرين الإنجيليين، فتسلّم إدارة مخزن بيع الكتب الدينيَّة التابع للإرساليات الإنكليزيّة. وهو اللغويّ الشهير المعلم، الَّذي قامت النهضة في أولى مراحلها عليه، وهو مثل سقراط؛ لم يؤلف الكتب، بل كانت كتبه الحيَّة تتمثل في أنه كان معلّماً أكثر منه أديباً، وكان يحث طلبته المسلمين والمسيحيين على الاستشهاد من القرآن الكريم.

كما كان يقول لطلابه وزائريه: «لقد ترك الله فينا –نحن العرب– معجزة لا تدانيها معجزة وهي (القرآن الكريم), لكنكم لم تصلوا بعد إلى مستوى تقدير هذه الثروة العظيمة الَّتي نفحنا الله بها». وكان دائماً يحض على التسامح الديني والترفع عن صغائر الأمور.

وعلى يدي نخلة زريق تخرج غالبيَّة الرعيل الأول من المتعلمين الفلسطينيين الذين

احتفت بهم حركة النهضة وازدهرت أجواؤها. ومن مشاهير طلابه الفلسطينيين: خليل السكاكيني، وبولس شحادة، وخليل طوطح، وجريس خوري، وحبيب خوري، وفرج فرج الله، وجورج متى[1]. فكان ذلك من أكبر العوامل في إحياء اللغة العربيَّة[2].

ب) الشيخ سعيد الكرمي ودعاة الخلافة الإسلامية:

إن ما تعرض له «سعيد الكرمي» من السجن والتعذيب وحكم الإعدام، لم تثنه عن مواقفه، وإنما قاد السجناء نحو التحدث بحريَّة ومطالعة الكتب والصحف، وعكفوا على الدّراسة والبحث العلمي، وتناوبوا على تعليم السجناء غير السياسيين القراءة والكتابة والدروس الأخرى. ووصف الكرميّ معاناته ومن معه من السجناء في قصيدة «قصتي»، وما فيها من معاملة سيئة وحياة بائسة لا يتوافر فيها الحد الأدنى من شروط الحياة[3].

كان الكرميّ، إلى جانب أسعد الشقيريّ، من التيار الإسلاميّ الإصلاحيّ المتأثر بأفكار «جمال الدين الأفغانيّ ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا[4]. وكان الكرميّ يطالب باستمرار الخلافة الإسلامية، ولكن بعيداً عن سيادة العنصر التركيّ، وقد تركّز نشاطه في إظهار مفاسد وطغيان الحكم التركيّ من جهة، والدعوة للخلافة الإسلاميَّة في شخص الشريف الحسين بن علي من جهة ثانية[5].

وفي هذا الجانب، يظهر «الشيخ يوسف النبهاني» (1847– 1932) وهو يقف على رأس التيار الإسلاميّ المحافظ، وكان من علماء الدّين البارزين[6]، إلا أنه فُصل من عمله في العام 1909م، بعد أن مكث عشرين سنة في رئاسة محكمة الحقوق في بيروت. ومن الجدير الإشارة إليه أن النبهاني لم يؤيد الثورة العربيَّة على الدولة العثمانية، وعند دخول الإنكليز واحتلال فلسطين، التزم الصمت والعزلة في قريته «إجزم»، حتى وافته المنيَّة في العام

(1) صالح (2016). ج1. ص: 195.

(2) صالح (2016). ج1. ص: 191–204.

(3) صالح (2016). ج1. ص: 129.

(4) صالح (2016). ج1. ص: 83.

(5) صالح (2016). ج1. ص: 118–119.

(6) صالح (2016). ج1. ص: 118– 119.

1932. وهنـاك مـن يرى بأن نأْي النبهاني عن العمل السـياسيّ في أواخـر حياته، يعود إلى «عدم وجود موقف سياسيّ واضح يؤيد فكره «الإسلاميّ المحافظ»[1].

نستنتج مما سبق أن من اقتفى أثر «نخلة زريق» وسار على دربه من المسيحيين، لم يكن العامل الدينيّ هو المحرّك لهم في مقاومة العثمانيين. وأن الشـيخيْن الكرميّ والنبهاني الإسـلاميّيْن المتمسـكيْن بدولـة الخلافة، ومن سـار على دربهما من روّاد النهضة لم يكـن العامل القوميّ العـروبيّ «المتعصّـب» هو المحرّك الرَّئيس لهم في مقاومة الحكم العثمانيّ. وإنما المشـترك بين هؤلاء جميعاً هو عدد من العوامل، منها:

1) حالـة الفسـاد الظاهر والبائـن في أروقة الحكـم، وعلى المسـتويات المختلفة، والتي جاء قسـم منها نتيجة الاختراقات داخل النظام الَّتـي حققتها جهات معاديَة صهيونيَّة وغيرهـا. وهنـاك من المناوئين من التفت إلى محاباة الدولـة العثمانيَّة للحركة الصهيونيَّة على حسـاب الحقوق العربيَّة، كما فعل يوسـف ضياء الخالديّ الَّذي كان ينتقد الحكم، من منطلق إصلاحيّ، مقرونة بإخلاصه الشديد تجاه الدستور والانتماء العثمانيّ، عندما أصبح عضواً في مجلس المبعوثين، منتقداً انتهاك السلطان «عبد الحميد» للدستور[2].

2) كان الإطـار الخارجـيّ الَّـذي يجمع العـرب والأتراك الوحـدة العثمانيَّـة والجامعة الإسـلامية؛ أي الخلافة والرابطة الدينية. إلا أن النصف الثاني من القرن التاسـع عشر شـهد إجراء الدولـة العثمانيَّة لبعـض الإصلاحات، اقتباسـاً للنظم والأسـاليب الَّتي راجت في الغرب. ورافق ذلك تطور الأدب التركيّ الَّذي أخذت أصداءه تقرع أسماع العرب، وتسـتثير في نفوسـهم عوامل التحرر الوطنيّ، وإيجاد مقوّمات خاصة تضمن للشـعوب العربيَّـة سـيادتها القوميَّـة والسياسـيَّة والاقتصاديـة[3]. أضـف إلى ذلك أن التعليم في الوطن العربيّ كان في الحضيض، وكانت الجامعة الوحيدة في بلاد السلاطين في اسطنبول[4].

(1) صالح (2016). ج1. ص: 74– 75.

(2) صالح (2016). ج1. ص: 56.

(3) ياغي (2001). ص: 53–54.

(4) صالح (2016). ج2. ص: 662.

وأما نتائج ذلك كله، فتتلخص في أنه بعد هزيمة الدولة العثمانية، بسط الغرب الاستعماريّ يده على المنطقة بأكملها، وتقاسم الإنكليز والفرنسيين منطقة الشرق الأوسط بأكملها، وبعد أن انتهى دور ما أطلق عليه الثورة العربيَّة الكبرى، أدار الغرب ظهره للوعود الَّتي وعدوها لقائد تلك الثورة «الحسين بن علي»، ولم يكتفوا بذلك بل أقصوه عن عرشه ونفي إلى قبرص، وترك بلا رعاية؛ حتى إنه عجز عن دفع أجرة بيته فرفعت عليه قضيَّة وكذلك جرى مع سفيره في لندن[1].

فدخلت شعوب المنطقة في مرحلة جديدة من الصراع، ولكن هذه المرّة مع الإنكليز الذين كانوا يبسطون سيطرتهم على فلسطين، والعراق، ومصر والسعوديَّة وإيران، والفرنسيين الذين يبسطون سيطرتهم على سوريا ولبنان ودول المغرب العربيّ «تونس والجزائر والمغرب». وكان نصيب فلسطين وشعبها أن بريطانيا أخذت تحث الخطا نحو تنفيذ تصريح بلفور بإقامة الدولة اليهوديَّة على أرض فلسطين، وهذا ما تم بعد أن قدم الشعب الفلسطينيّ عشرات الآلاف من خيرة أبنائه شهداء، وخسر (78 %) من أرضه، وتم تشريد نحو مليون فلسطينيّ في أصقاع المعمورة.

خامساً- رواد النهضة يشتتون ظلمة المكان:

شهدت الحقبة قيد الدّراسة التحليل على حالة من الجهل والأمّيَّة والتخلف، والتي تتعمق -زمنيّاً- حتى مئات السنين السابقة لها؛ أيّ إنها لم تكن طارئة. وبالتالي، فإن الفرد المتعلم في ذلك الزمن يكون ومضة واضحة المعالم في ذلك الظلام الدامس.

إن أدباء وباحثي تلك الحقبة، وإن كانوا بأعداد قليلة، انقسموا إلى ثلاثة أقسام، هي: **الأول**، أدباء امتازوا بالجمود، فاندفع **فريق ثانٍ** يناوئهم فينقض كلامهم ويرى عكس آرائهم، متهوّراً لا يصطنع أناة ولا تحدوه رويّة، داعون إلى الفوضى، مسرفون في تمسّكهم بالقشور دون اللباب، فصار خطره لا يقل عن خطر الجامدين. فانبرى **فريق ثالث** من أحرار المفكّرين متّزني العقول، درسوا الأدب ودرسوا إلى جانبه الحياة، فعرفوا ما يتطلّبه عصرهم من مقتضيات البلاغة، ودرسوا مناهج البحث دراسة مستفيضة منتجة، ويقف

(1) الخالدي، حسين فخري (2014). ومضى عهد المجاملات... مذكرات -بيروت 1949-. دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن. المجلد الأول. ط1. ص: 123-124.

على رأس هذه الفئة المفكّر والأديب المصريّ طه حسين (1889– 1973)[1].

بالنظر إلى المجالات الَّتي أبدع فيها كل رائد على حدة، نجد أن غالبيتهم موسوعيون؛ حيث يتقن الواحد منهم أكثر من تخصص في آنٍ معاً، كالسياسة والفكر والصحافة والشعر والترجمة والقضاء والمحاماة. إلا أنه لم يلاحظ وجود التخصصات العلمية، سوى في القلة القليلة المتمثلة في عبد الله مخلص (1878– 1947) رائد التحقيق العلميّ الآثاري، وتوفيق كنعان (1882– 1964) المتخصص في علم الجراثيم.

الخاتمة

ونحن نحتفي بهؤلاء الروَّاد، الَّذين هم أشبه ما يكونون بأشجار خضراء يانعة ظهرت في صحراء قاحلة مالحة التربة، لا بد لنا أن نندب حظَّنا في أولئك العباقرة من الفقراء من أبناء الوطن الأصليين الذين أهملتهم دولتهم وقذفت بهم «عنوة» في دياجير الجهل والتخلف، ويقابل ذلك أن نظراءهم من أعداء الوطن تنعموا بالفرص الكافيَة التي جعلت منهم علماء ومفكّرين وعسكريين ركبوا قطار العلم والمعرفة الذي أوصلهم إلى إقامة دولة لهم على أرض فلسطين.

ولكن يبقى عزاؤنا في أن هؤلاء الروَّاد أسسوا لمن جاء بعدهم من العلماء والمفكرين، فأخذت أعدادهم تتوالى وتتزاحم الأقدام. فيلاحظ أن خمسين رائداً ولدوا على مدى سبعين عاماً في القرن التاسع عشر، في حين أن العدد نفسه ولد خلال أول (16) عاماً من القرن العشرين. وكان لذلك النمو والتطور في أعداد الروَّاد الأثر البالغ في مقاومة المستعمرين الأوروبيين، وتحرير الأوطان العربيَّة منهم، تباعاً، خلال القرن العشرين.

وقبل أن نغادر، أجد ضرورة التوجه إلى صانعي القرار، لتركيز الجهود في دراسة وتحليل الآثار الفكريَّة لهؤلاء الروَّاد؛ سواء القلميَّة أو غير القلمية. مع ضرورة اقتفاء آثارهم المكتوبة، المنشورة وغير المنشورة؛ إذ إن هناك منهم من ترك بين أيدينا مخطوطات لم تتم طباعتها ولا نشرها حتى تاريخه. ولعلّه من المهم للغاية إنشاء متحف خاص بأبحاث وكتابات هؤلاء الروَّاد، والترجمات من اللغات الأخرى، الَّتي شكلت إضافة نوعيَّة إلى

(1) صالح (2016). ج1. ص: 389– 390.

المكتبة العربيَّة وغير ذلك، يُعرض فيه كتبهم ومخطوطاتهم، باعتبارها جزءاً من التراث الحيّ للأمة، الَّذي لا بد من تواصل الأجيال معه.

ولا أعتقد بالمبالغة إن قلت إن هناك حاجة لإنشاء مركز أبحاث متخصص في البحث والتدقيق في الإنتاج الفكريّ لكل رائد على حدة، والبناء على الأفكار الواردة فيها، مثل: محمد عزة دروزة (1888م- 1984م)، وخليل السكاكينيّ (1878م-1953م)، وخليل طوطح (1887م- 1955م)، وتوفيق كنعان (1882م- 1964م) وأحمد سامح الخالديّ (1895م- 1951م) وغيرهم. ومن الجدير ذكره أن من بين هؤلاء الروَّاد من أبدع أدباً خاصّاً بالسجون، لا بد من إعادة تحليله وسبر غوره، لما يتضمنه من نماذج حيَّة لأساليب المواجهة والصمود، تضاف إلى إبداعات أسرانا التي تتراكم يوماً بعد يوم، لتُشكِّل مدرسة عالميَّة تحمل ملامح الشعب الفلسطينيّ الذي سطّر أروع ملامح التضحيَّة والفداء والإبداع رغم القيد ورغم ظلمة السجن الحالكة.

الرقم	الاسم	تاريخ الميلاد	مكان الولادة	تاريخ الوفاة	مكان الوفاة	العمر	الديانه	مكان الدّراسة	عمل في التعليم	كاتب	مؤلف	سياسي	شاعر	صحفي	مترجم	رجل دين
1	يوسف ضياء الخالدي	1842	القدس	1906	القدس	64	مسلم	في مدرسة إنكليزيَّة ثم أكمل تعليمه في الأستانة		1		1			1	
2	الشيخ يوسف النبهاني	1849	حيفا	1932	حيفا	83	مسلم	قرأ القرآن على يد والده ثم أرسله إلى الأزهر لإكمال تعليمه		1	1	1	1			1
3	الشيخ سعيد الكرمي	1852	طولكرم	1935		83	مسلم	درس في قريته ثم أرسله والده إلى الأزهر الشريف					1	1	1	1

4	الشيخ علي الريماويّ	1860	رام الله	1919		59	مسلم	تلقى تعليمه الأوليّ على يد والده، ثم انتقل لإكمال تعليمه الابتدائيّ في القدس في قريته ثم أرسله والده إلى الأزهر الشريف	1				1	1			1
5	المعلم نخلة زريق	1861	بيروت	1921	القدس	60	مسيحي		1								
6	القس أسعد منصور	1862	شفا عمرو	1941	رام الله	79	مسيحي			1							1
7	الشيخ خليل الخالدي	1863	القدس	1941	القاهرة	78	مسلم					1					

8	روحي الخالدي	1864	القدس	1912		48	مسلم			1		1			1	
9	نجيب نصار	1865	لبنان	1948		83	مسيحي			1	1	1		1		
10	بندلي صليبا الجوزي	1871	القدس	1942		71	مسيحي			1	1					
11	سليم قبعين	1870	الناصرة	1951	القاهرة	81	مسيحي				1			1	1	
12	خليل بيدس	1874	الناصرة	1949		75	مسيحي		1	1	1	1		1	1	
13	الشيخ محيي الدين الملّاح	1876	لبنان	1952	غزة	76	مسلم		1	1	1		1			1

14	خليل السكاكيني	1878	القدس	1953	مصر	75	مسيحي		1			1	1	1		
15	عيسى العيسى	1878	يافا	1950	بيروت	72	مسيحي	مدارس يافا والفرير والجامعة الأميركيّة بيروت	1			1	1	1		
16	عبد الله مخلص	1878	حلب	1947		69	مسلم	المكتب الرشيديّ في حيفا		1	1				1	
17	حبيب الخوري	1879	عكا	1968	السلط	89	مسيحي	في مدرسة عكا، ثم إلى القدس فتتلمذ على يد نخلة زريق	1	1	1					

18	الشيخ سليم أبو الإقبال اليعقوبي	1880	اللد	1946	مكة المكرمة	66	مسلم	في مدرسة اللد، ثم إلى الأزهر		1	1	1	1		1
19	الشيخ عبد القادر المظفّر	1880	القدس	1949	عمان	69	مسلم	في القدس، ثم إلى الأزهر							1
20	إبراهيم الدباغ	1880	يافا	1946	القاهرة	66	مسلم	درس في كتاتيب يافا، ثم التحق بالأزهر الشريف					1	1	
21	الشيخ سليمان التاجي الفاروقي	1882	الرملة	1958		76	مسلم	درس على يد الشيخ يوسف الخيريّ، ثم إلى الأزهر الشريف، ثم درس الحقوق في الأستانة					1	1	

22	احمد حلمي عبد الباقي باشا	1882	صيدا	1963	توفي في لبنان ودفن في القدس	81	مسلم	درس الدين على يد الشيخ سليمان العابوديّ، واللغة العربيَّة على يد الشيخ سعيد الكرمي					1		
23	محمد إسعاف النشاشيبي	1882	القدس	1948	القاهرة	66	مسلم	درس الابتدائيَّة في القدس، ثم إلى المدرسة البطريركيَّة في بيروت	1	1	1	1	1		
24	بولس شحادة	1882	رام الله	1943		61	مسيحي	حصل على الثانويَّة من مدرسة صهيون، ثم التحق بكليَّة الشباب في القدس	1	1		1	1	1	

25	توفيق كنعان	1882	بيت لحم	1964	القدس	82	مسيحي	الابتدائيَّة في بيت جالا، ثم شنلر في القدس ثم الأميركيَّة ببيروت		1	1	1			1	
26	الشيخ عثمان الطبّاع	1882	غزة	1950		68	مسلم	أتم دراسته الابتدائيَّة في غزة ثم إلى الأزهر		1	1		1			
27	عادل جبر	1885	يافا	1953		68	مسلم	درس في يافا وأتم الثانويَّة في الفرير الفرنسيَّة بيافا ثم إلى اسطنبول فجنيف		1		1		1		
28	ميّ زيادة	1886	الناصرة	1941	القاهرة	55	مسيحية	الابتدائيَّة في الراهبات اليوسفيات ثم استكمال تعليمها في بيروت		1	1		1		1	

29	خليل طوطح	1887	رام الله	1955		68	مسلم	درس الابتدائيَّة في رام الله والثانويَّة في برمانا الأنجليزيَّة بلبنان والدكتوراه من أميركا	1	1	1					
30	محمد عزة دروزة	1888	نابلس	1984		96	مسلم	درس الابتدائيَّة في نابلس ثم إلى المدرسة الرشيديَّة في نابلس	1	1	1	1				1
31	وديع البستاني	1888	لبنان	1954	لبنان	66	مسيحيّ ماروني	درس الابتدائيَّة في الشوف بلبنان، والبكالوريوس من الأميركيَّة	1				1			1
32	حمدي الحسيني	1897	غزة	1988		91		المدرسة الرشيديَّة بغزة		1		1		1		

33	إسكندر الخوري البيتجالي	1890	عين كارم	1973		83	مسيحي	تلقى تعليمه الابتدائيّ في مدرسة الروم الأرثوذكس ببيت جالا، ثم إلى الروسيَّة في الناصرة، ثم إلى لبنان		1	1		1	1		
34	شكري شعشاعة	1890	غزة	1963		73		أتم دراسته الابتدائيَّة في غزة ثم إلى نابلس لنيل الثانوية		1	1	1	1	1		1
35	عارف العارف	1892	القدس	1973		81		أتم دراسته الابتدائيَّة في القدس، ثم إلى اسطنبول		1	1	1		1	1	

36	كلثوم عودة	1892	الناصرة	1969		77	مسيحية	تلقت تعليمها الابتدائيّ في الناصرة، ثم التحقت بدار المعلمات الروسيَّة في بيت جالا فتخرجت على يد السكاكيني								
37	جورج أنطونيوس	1892	لبنان	1942		50	مسيحي			1	1	1				
38	جمال الحسيني	1892	القدس	1982		90		درس الابتدائيَّة في القدس، والثانويَّة من مدرسة المطران (صهيون سابقاً)		1		1	1			
39	أحمد شاكر الكرمي	1894	طولكرم	1927		33	مسلم	درس الابتدائيَّة في طولكرم ثم إلى الأزهر		1	1			1	1	

40	عمر الصالح البرغوثي	1894	دير غسانة	1965	القدس	71	مسلم	تلقى دروسه في مدرسة كتاتيب القرية، ثم درس في مدرسة «الأليانس اليهودية» ثم في الفرير الفرنسيَّة ثم مكتب سلطاني بيروت لإكمال دراسته ثم إلى الأزهر	1	1	1	1				
41	عارف العزوني	1896	يافا	1961	نابلس	65	مسلم	تلقى تعليمه في كليَّة الفرير الفرنسيَّة ثم الثانويَّة في لبنان	1	1				1		
42	محمد علي الطاهر	1896	نابلس	1974	بيروت	78	مسلم	تلقى تعليمه في مدارس نابلس		1	1	1		1		

43	أحمد سامح الخالدي	1895	القدس	1951	بيت مري في لبنان	56	مسلم	تلقى تعليمه في مدرسة الأميركان، والثانويَّة من المطران والبكالوريوس والماجستير من الأميركيَّة ببيروت	1	1	1	1			
44	جميل البحري	1896	حيفا	1930	حيفا	34	مسيحي	تلقى تعليمه الابتدائيّ في مدارس حيفا وتخرّج من المدرسة الأسقفيَّة للروم الكاثوليك فيها		1	1				
45	عجاج نويهض	1897	لبنان	1982		85	مسلم	تلقى تعليمه الابتدائيّ والثانويّ في لبنان		1	1	1		1	1

46	عادل زعيتر	1897	نابلس	1957	نابلس	60	مسلم	تلقى تعليمه الابتدائيّ في نابلس والثانويّ والعليا في لبنان		1	1	1			1	
47	محيي الدين الحاج عيسى الصفدي	1900	صفد	1974		74	مسلم	تلقى تعليمه الابتدائيّ في صفد والإعداديّ في عكا والثانويّ في دمشق		1	1		1			
48	واصف جوهرية	1897	القدس	1973		76	مسيحي	تلقى تعليمه الابتدائيّ في مدرسة الدبّاغة في القدس (ألمانيّة)، ثم التحق بالمطران		1	1					

49	مصطفى مراد الدباغ	1898	يافا	1989		91	مسلم	تلقى تعليمه الابتدائيّ في المدرسة الأميريَّة في يافا، ثم الثانويَّة من سلطانيَّة بيروت	1	1	1	1				
50	درويش البغدادي	1898	طولكرم	1961	بيروت	63	مسلم	تلقى تعليمه الابتدائيّ في طولكرم، والإعداديَّة والثانويَّة في بيروت، ثم العليا من الأميركيَّة ببيروت	1	1	1	1				

فلسطين، بيت لحم، العبيدية، 18/ 04 /2020 م